عودة راشد الجيوسي

الإسلام والتنمية المستدامة: رؤى كونية جديدة

ترجمة جمانة وليد [وآخرون]

(عمّان: مؤسسة فريدريش إيبرت، ٢٠١٣). (سلسلة التحوّل والابتكار)

بوبكر صابة[*]

كلية العلوم الاقتصادية ـ التجارية وعلوم التسيير، جامعة قسنطينة ٢.

منذ أن نشرت اللجنة الأممية للبيئة والتنمية تقريرها المعنون بمستقبلنا المشترك سنة ١٩٨٧[١]، الذي تطرقت فيه إلى موضوع التنمية المستدامة بصفة مباشرة، جذبَ هذا المفهوم اهتمام السياسيين، والاقتصاديين، والباحثين الأكاديميين الذين نشروا حوله العديد من الأبحاث والدراسات، بل وأسّسوا مجلّات علمية مُحكمة تُعنى بالتنمية المستدامة والموضوعات المرتبطة بها فقط.

غير أنه وبالرغم من شيوع استعمال مصطلح التنمية المستدامة من قِبل الباحثين في العلوم الإنسانية والتطبيقية والمنظمات الدولية والاعتراف بأهمية هذا الأخير باعتباره الطريق الوحيد المتاح أمام الدول النامية لتحقيق التنمية ودعوتها إلى تبنّي قواعد التنمية المستدامة في أي خطة أو سياسة اقتصادية[٢]، إلا أنه لا يوجد اتفاق بين الباحثين والمنظمات الدولية حول تحديد معنى التنمية المستدامة[٣]. كما أن المعنى

(*) البريد الإلكتروني: boubakeur.saba@univ-constantine2.dz.

(١) اللجنة الأممية للبيئة والتنمية، **مستقبلنا المشترك**، ترجمة محمد كامل عارف؛ مراجعة علي حسين حجاج، عالم المعرفة؛ ١٤٢ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٩).

(٢) عثمان محمد غنيم وماجدة أبو زنط، «إشكالية التنمية المستديمة في ظل الثقافة الاقتصادية السائدة،» **دراسات العلوم الإدارية** (الجامعة الأردنية)، السنة ٣٥، العدد ١ (٢٠٠٨)، ص ١٧٢-١٨٠، <http://journals.ju.edu.jo/dirasatadm/article/viewfile/277/275>.

(٣) Joan Pasqual and Guadalupe Souto, «Sustainability in Natural Resources Management,» *Ecological Economics*, vol. 46, no. 1 (August 2003), pp. 47-59.

المناط بالتنمية المستدامة يختلف باختلاف المجتمعات، والثقافات الاقتصادية والأطر القانونية والنظم السياسة السائدة[٤]، إضافة إلى أنه مفهوم دينامي وليس مفهوماً ثابتاً[٥] فالأجيال القادمة المدعومة بتقدّم علمي وتكنولوجي ستعرف التنمية المستدامة بطريقتها الخاصة وستحدّد أهداف ومبادئ تلائم ظروفها[٦].

لكن الملاحظ هو غياب تفسيرات للتنمية المستدامة أو رؤى بديلة من هذا المفهوم مستمدة من الشريعة الإسلامية أو الفقه الإسلامي، وهو ما عمل البروفسور الجيوسي على تداركه في كتاب **الإسلام والتنمية المستدامة: رؤى كونية جديدة** الذي نقدم مراجعة سريعة له في هذه الصفحات.

أولاً: تحديد مفهوم التنمية المستدامة

تناول الباحث في الفصل الأول ـ كما جرت عليه العادة ـ مفهومَ التنمية المستدامة والتعريفات المقدمة له. لكن وعلى نقيض معظم الكتابات العربية في هذا المجال التي تبنّت تعريف التنمية المستدامة والتفسيرات الغربية له على أنها حقيقة مسلّم بها فإن البروفسور الجيوسي تناول هذا الموضوع من زاوية نقدية من أجل تحديد العناصر المفقودة في النموذج الغربي المفسِّر للتنمية المستدامة بأركانه الاقتصادية، والاجتماعية والبيئية. بحسب الجيوسي فإن هذا النموذج الذي يجعل البشر محور التنمية (Anthropocentric Approach)، والذي يستند إلى الإفراط في الاستهلاك قد دمّر الطبيعية، كما أدّى إلى اتساع الفجوة بين الفقراء والأغنياء سواء على المستوى المحلي أو الدولي. هنا تبرز الحاجة إلى تقديم تصوُّر جديد للتنمية المستدامة يؤدّي إلى التقدّم والازدهار ويتجنب في الوقت نفسه التأثيرات السلبية للنموذج الغربي.

على الرغم من قراءة البروفسور الجيوسي النقدية للتعاريف المقدمة للتنمية المستدامة ونقده للنموذج الاقتصادي الغربي إلا أنه لم يقدم البديل له وفق الرؤية الإسلامية (نظام اقتصادي إسلامي متكامل باعتباره النظام الذي تتمّ فيه العمليات الاقتصادية بما فيه عملية التنمية).

زيادة على ذلك، فإن الكاتب لم يتطرّق إلى النقاش العالمي القائم حالياً حول تعريف التنمية المستدامة وأبعادها التي تتسم بحسب بعض الباحثين بالتناقض وعدم الاتساق. في الإطار نفسه لم يناقش الكاتب إذا كانت العناصر الأربعة ـ التي اقترحها لبلورة مفهوم التنمية المستدامة بحسب الفكر الإسلامي ـ تتسم بالاتساق أو التناقض،

---

(٤) Donella Meadows, «Indicators and Information Systems for Sustainable Development: A Report to the Balton Group,» The Sustainability Institute (September 1998), <http://www.iisd.org/pdf/s_ind_2.pdf>.

(٥) Justin M. Mog, «Struggling with Sustainability: A Comparative Framework for Evaluating Sustainable Development Programs,» *World Development*, vol. 32, no. 12 (2004), pp. 2139-2160, <http://www.geo.mtu.edu/~asmayer/rural_sustain/intro/further_readings/mog_2004.pdf>.

(٦) Andreas Kemmler and Daniel Spreng, «Energy Indicators for Tracking Sustainability in Developing Countries,» *Energy Policy*, vol. 35, no. 4 (2007), pp. 2466-2480.

وما إذا كان تحقيق عنصر يتمّ على حساب العناصر الأخرى.

إضافة إلى هذا فإن البروفسور الجيوسي عند تطرّقه إلى أبعاد التنمية المستدامة، سواء بحسب التصور الغربي أو التصوّر المقترح في إطار الشريعة الإسلامية، درس كل بعد وكل عنصر على حدة من دون تحليل العلاقة بين هذه الأبعاد والمشاكل المنهجية التي يمكن أن يتعرض لها الباحثون أو المشاكل التطبيقية التي يمكن أن يواجهها صنّاع القرار بغية تحقيق نوع من التوازن بين هذه الأبعاد والعناصر.

أهم من هذا فإن التنمية المستدامة هي تصوّر لما يجب أن تكون عليه التنمية من أجل تحقيق أهداف اقتصادية، واجتماعية وبيئية في الوقت نفسه. على هذا الأساس فهي مفهوم مجرّد وليست ظاهرة واقعية، ولهذا يجب عدم الانسياق وراء الفكرة القائلة بأن أي مفهوم يتوصّل إليه في الغرب يوجد مقابل له في التراث الإسلامي.

ثانياً: عناصر التنمية المستدامة

مباشرة ينتقل البروفسور الجيوسي إلى تقديم تصوّر للتنمية المستدامة مستمدّ من الفكر الإسلامي، مكوّن من أربعة عناصر أساسية هي العدل، والإحسان، وصلة الرحم والحدّ من الفساد. هذه العناصر التي أشار إليها الكاتب إشارات سريعة وموجزة في الفصل الثاني تكوّن مواضيع الفصول الأربعة الآتية. في ما يلي عرض موجز لعناصر التنمية المستدامة بحسب تصور البروفسور الجيوسي:

ـ ناقش الكاتب مفهوم العدل باعتباره العنصر الأول من عناصر التنمية المستدامة بحسب التصور الذي قدمه. أهم النقاط التي تطرق إليها الجيوسي عند تحليله لعنصر العدل هي الخلافة في الأرض والأخوة العالمية كأساس لتحقيق العدالة، إضافة إلى الزهد الذي عرّفه بأنه العيش برفق على الأرض من أجل حماية الموارد الطبيعية، التي تعتبر أمانة يجب صيانتها والحفاظ عليها لتلبية حاجات (لا رغبات) الأجيال الحالية والمستقبلية. زيادة على هذا تناول الباحث مفهومَ التجارة العادلة التي تعتبر مثالاً حياً عن التنمية التي يكون محورها الإنسان وتتماشى في الوقت نفسه مع التعاليم الإسلامية.

ـ حلّل الكاتب مفهوم الإحسان باعتباره العنصر الثاني من عناصر التنمية المستدامة بحسب التصوّر الإسلامي المقترح. ومن أهم النقاط التي بحثها الجيوسي في هذا الفصل فكرة الذكاء المستمدّ من الطبيعية من وجهة نظر إسلامية، وهي النقطة التي يؤكدها في الفصل السابع عند نقده للنموذج النيوتُني للعلم.

ـ أما الفصل المتعلّق بصلة الأرحام، التي اعتبرها الكاتب البعد الإنساني للتنمية فقد كان عبارة عن تقديم للنظريات الإسلامية في علم الاجتماع التي تفسّر العلاقات التي تربط بين الأفراد والدول وتطورها عبر الزمن. لعل أهم ما تطرق إليه الجيوسي في هذا الفصل هو دور الوقف الإسلامي في تحقيق التنمية.

ـ إضافة إلى ما سبق، عالجَ الجيوسي قضيةَ التلوث والفساد التي عرّفها على أنها

الانحراف عن الفطرة، وعلى هذا الأساس تعتبر قضية التغيير المناخي فساداً. ونظراً إلى طبيعة التغيير المناخي ذات الأبعاد العالمية فإن البروفسور الجيوسي شدّد على ضرورة استحداث هيئة عالمية للتصدّي لهذه المشكلة. في هذا الإطار قدّم الجيوسي رؤيته الاستراتيجية لمعالجة هذه المشكلة، وتقوم هذه الاستراتيجية على ثلاثة محاور رئيسية هي الكفاح (الحراك الأخضر)، والاجتهاد والابتكار الأخضر؛ على الرغم من أن الكاتب لم يتبنّ التفسير المشهور للتنمية المستدامة والقائم على أبعاد ثلاثة وهي البعد الاقتصادي، والاجتماعي والبعد البيئي، إلا أن تفحّص النقاط التي تطرق إليها أثناء تحليله لعناصر التنمية المستدامة يبيّن بوضوح أن الجيوسي قد أشار إليها بصورة أو بأخرى عبر فصول كتابه. فمثلاً عند تطرق الباحث إلى مفهوم الزهد والحصول على حاجات الإنسان من الطبيعة فإنه يشير بصورة غير مباشرة إلى البعد الاقتصادي للتنمية المستدامة المتمثّل في ضرورة تلبية حاجات المواطنين الأساسية منها خاصة.

أما في ما يخصّ البعد الاجتماعي فقد أشار إليه الجيوسي صراحة في الفصل الذي عرض فيه عنصرَ صلة الرحم، كما أشار إليه ضمناً في العديد من النقاط التي تطرّق إليها في بحثه: كقضية الأخوة العالمية وضرورة تبنّي تجارة عادلة، وهي المسائل التي بحثها الكاتب في الفصل المتعلق بالعدل.

أما البعد البيئي فقد أشار إليه الكاتب بصورة واضحة عند تطرّقه إلى قضية الفساد والحد منه في الفصل المخصص لذلك، كما أشار إليه ضمناً عندما أكد ضرورةَ تبنّي فكرة الزهد وضرورة حماية الموارد الطبيعية وصيانتها لضمان تجدّد قدرتها على تلبية حاجات السكان.

لعل إشارة البروفسور الجيوسي إلى هذه الأبعاد ـ وإن بصورة غير مباشرة أحياناً على الرغم من أنه يهدف في كتابه إلى بلورة مفهوم للتنمية المستدامة من وجهة النظر الإسلامية ـ تدلّ على أهمية هذه الأبعاد في تحقيق تنمية مستدامة.

يبدو أن مساهمة الكاتب تتمثّل في إشارته إلى أن التنمية المستدامة تعتبر مفهوماً ذا أوجه وسياقات مختلفة، الأمر الذي يستدعي ضرورةَ الأخذ بعين الاعتبار الظروف السياسية، الاجتماعية والاقتصادية لكل إقليم عند صياغة مفهوم للتنمية المستدامة وتصميم سياسات واتخاذ خطوات لتنفيذه. في هذا الإطار اقترح الكاتب مفهوم الإحسان حيث أكد قضيةَ الجمال الداخلي والانسجام بين الإنسان والطبيعة في مسعى الإنسان إلى الحصول على حاجاته، وهذا بعكس النموذج الغربي القائم على فكرة الصراع سواء بين الإنسان والإنسان أو بين الإنسان والطبيعة. هذه الفكرة القائمة على الانسجام بدأت تلاقي قبولاً عند المفكرين والفلاسفة الغربيين الذين يؤكدون أن كل المخلوقات على كوكب الأرض لها الحق نفسه في العيش، كما أن البيئة باعتبارها المحيط الذي يضم هذه المخلوقات له الحق أيضاً في الحياة(٧).

(٧) مايكل زيمرمان، **الفلسفة البيئية: من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية**، ترجمة معين شفيق رومية، عالم المعرفة؛ ٣٣٢ ـ ٣٣٣، ٢ ج (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٦).

في إطار مناقشة موضوع الحد من الفساد عالجَ الكاتب قضية التغيّر المناخي معتبراً أن النشاط البشري المتسبّب الرئيس بهذه الظاهرة، مقدماً اقتراحاته لمواجهة هذه المشكلة العالمية، من دون الإشارة إلى أن النتائج العلمية الحالية ليست قطعية وإلى الأبحاث الأخرى التي تستبعد أن يكون للنشاط البشري أي دور جوهري في حدوث هذه الظاهرة. ليس من الحكمة وضع تصوّرات وتقديم اقتراحات لمواجهة هذه الظاهرة بناءً على بيانات غير قطعية ومعلومات غير مؤكدة، إذ يمكن أن يؤدي هذا إلى رفض النموذج الإسلامي برمته إن كانت نتائج الأبحاث المستقبلية على النقيض من نتائج الأبحاث الحالية غير المؤكّدة.

ثالثاً: أهمية التعليم

ختم البروفسور الجيوسي كتابه بفصل يتحدّث فيه عن التعليم من أجل التنمية المستدامة. على غرار الفصل الأول بدأ الجيوسي الفصل بقراءة نقدية للنظام التعليمي الحالي القائم على النموذج الميكانيكي لنظرية نيوتن، التي ترى في الكون مصدراً للاستغلال لا مصدراً للإلهام، وهي القضية التي بحثها الكاتب سابقاً في الفصل الرابع عند تحليله لعنصر الإحسان. بحسب الجيوسي فإن هذا الفهم الخاطئ للطبيعية أدّى إلى الاستهلاك المكثّف للموارد الطبيعية، ما نتج منه استنزاف في رصيد تلك الموارد/مع ما يترتّب عليه من زيادة في مستويات التلوّث التي أدت إلى الوضع السائد حالياً.

يلاحظ أنه عند تحليل الباحث الجيوسي لموضوع العلم من أجل التنمية - باستثناء نقده للإطار التعليمي الغربي - فإن الكاتب لم يربط بشكل مباشر بين التعليم وتحقيق التنمية المستدامة بحسب المفهوم الإسلامي، كما أنه لم يبيّن طرق وميكانيزمات تأثير التعليم في العدل، والإحسان، وصلة الأرحام والحدّ من الفساد، وهي العناصر الأربعة للتنمية المستدامة التي قدّمها البروفسور الجيوسي.

خاتمة

إن كتاب الجيوسي يعتبر بحق مساهمة جدية في تقديم بديل للمفاهيم الغربية المستوردة، التي لا تتناسب مع خصائص المجتمعات الإسلامية، وقيمها الروحية ومبادئها. لذا كان لزاماً تقديم بديل لهذه المفاهيم، وأولها تقديم نظام اقتصادي إسلامي متكامل ومواكب للعصر وبديل للأنظمة الاقتصادية، المستوردة، بالإضافة إلى بديل لمفهوم التنمية مستمدّ من الشريعة الإسلامية لنصل في النهاية إلى تقديم تصور للتنمية المستدامة في إطار مبادئ الشريعة الإسلامية، حتى تكون النظرية الإسلامية في هذا المجال نظرية متكاملة صالحة للتطبيق وليست مجرد أطروحات مجتزئة تقدم حلولاً لمشاكل محدودة □